التعارف في الإسلام
الغاية والمنهج

محمد السمّاك ■

أوحى الله ﷻ لرسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ بالإسلام ليكون رسالة للعالمين. ولعالمية الرسالة الإسلامية إشارات واضحة في القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي. أورد منها ثلاثاً تحمل الإشارة الأولى الآية الأولى من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. إن في ذلك تأكيداً على المساواة بين كافة أجناس البشر مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، ومهما تباينت أديانهم ومذاهبهم، فجميع الناس ـ من دون استثناء ـ مخلوقون من نفس واحدة.

وتتمثل الإشارة الثانية في الآية 70 من سورة الإسراء، وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، والتكريم الإلهي هنا هو لبني آدم؛ أي لكل الناس، بصرف النظر عن اي انتماء عرقي أو ديني أو ثقافي أو قومي.

أما الإشارة الثالثة فتعكسها الآية 107 من سورة الأنبياء، في هذه الآية يخاطب الله ﷻ النبي محمد ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي لكل الناس في العالم كله، وليس للعرب بني قومك فقط.

■ كاتب وباحث من لبنان.

من هنا فإن عالمية رسالة الإسلام وعالمية دعوته تستمدان أسسهما من المساواة التامة بين الناس جميعهم في الخلق من نفس واحدة، ومن التكريم الإلهي لبني آدم ـ أي للإنسان ـ الذي أورثه الله الأرض واستخلفه فيها.

غير أن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون الناس ـ رغم وحدانية الخالق، ووحدة الخلق ـ أمماً وشعوباً مختلفة؛ فالوحدة الإنسانية تقوم على الاختلاف والتنوع وليس على التماثل والتطابق؛ ذلك أن الاختلاف آية من آيات عظمة الله ومظهراً من مظاهر روعة إبداعه في الخلق؛ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: 22].

ومن ثم فإن الاختلاف العرقي لا يشكّل قاعدة لأفضلية ولا لدونية، فهو اختلاف في إطار الأسرة الإنسانية الواحدة، يحتم احترام الآخر كما هو، وعلى الصورة التي خلقه الله عليها.

إذا كان احترام الآخر كما هو لوناً ولساناً (أي إثنياً وثقافياً) يشكّل قاعدة ثابتة من قواعد السلوك الديني في الإسلام، فإن احترامه كما هو عقيدة وإيماناً هو إقرار بمبدأ تعدد الشرائع السماوية، واحترام لمبدأ حرية الاختيار، والتزام بقواعد عدم الإكراه في الدين.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]، وذلك إشارة واضحة إلى تعدد التوجهات، ويقول أيضاً: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 145].

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28].

معنى ذلك أنه مع اختلاف الألسن والألوان، كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكدّ عليه القرآن الكريم بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ

ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 48].

فالاختلاف الثقافي والعرقي والديني والمذهبي باقٍ حتى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذٍ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرف عليه وتقبّله واحترامه كسنّة دائمة من سنن الكون.

غائية التعارف:

إنّ عالمية رسالة الإسلام وعالمية دعوته تستمدان أسسهما من المساواة التامة بين الناس جميعهم في الخلق من نفس واحدة، ومن التكريم الإلهي لبني آدم الذي أورثه الله الأرض واستخلفه فيها.

لا يتناقض الاختلاف مع الوحدة الإنسانية؛ فالعلاقة التكاملية بين الوحدة والاختلاف تبرز من خلال المبادئ الثلاثة التالية التي قال بها القرآن الكريم:

المبدأ الأول هو التداول ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 140]. إذ لو كان الناس كلهم شعباً واحداً أو إثنية واحدة أو على عقيدة واحدة وفكر واحد لما كانت هناك حاجة للتداول. ولأنهم مختلفون، ولأن الإرادة الإلهية شاءت أن يكونوا مختلفين، كان لا بد من التداول. والتداول يعني تواصل الانسانية واستمرارها بما هو مناقض لمقولة نهاية التاريخ التي طلع بها المفكر الأميركي من أصل ياباني فوكاياما؛ فالتداول حياة، والنهاية موات.

المبدأ الثاني هو التدافع ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [البقرة: 251]. فالتدافع ـ وليس التحارب ولا التصادم ـ هو تنافس ارتقائي وتطويري للمجتمعات الإنسانية المختلفة؛ ذلك ان المجتمعات كالمياه، إذا ركدت أسنت، وإذا تحركت وتدافعت أمواجها، تعانقت مع حركة الضوء والريح مما يوفر لها عناصر الحياة والانتعاش والنمو والتقدم. فمن دون الاحتكاك الفكري والتلاقح الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس المختلفين والمتنوعي الثقافات، يفقد الذهن عطشه إلى المعرفة التي هو عود الثقاب

الذي يلهبه. إن الاختلاف بين الناس وما يشكّله الاختلاف من تدافع هو أحد أهم مستلزمات عدم فساد الأرض.

المبدأ الثالث هو التغاير ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ﴾ [الأنعام: 38]. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞ﴾ [يونس: 47]. ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾ [الرعد: 30].

فالتغاير والاختلاف هو القاعدة، وهي قاعدة عصية على التجاوز، تشكل الثابت الدائم في المجتمعات الإنسانية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الزمن.

ولذلك أرسى الله قاعدة التعارف المكملة لقاعدة الاختلاف والتغاير، والقاعدتان معاً تشكلان الأساس الذي تقوم عليه الأخوّة الإنسانية التي لا سلام ولا استقرار من دونها.

لقد قال الإسلام بالتعارف بين الجماعات البشرية ولم يقل بالتسامح، ولقد كان الفيلسوف الألماني نيتشه على حق عندما عدّ «التسامح إهانة للآخر»؛ لما يتضمنه من فوقية المتسامِح تجاه المتسامَح معه.

إن علاقة الإسلام بالرسالات السماوية التوحيدية ليست علاقة تسامحية ولكنها علاقة إيمانية؛ ذلك أن إيمان المسلم لا يكتمل إلا بالإيمان بكل الأنبياء والرسل وبكل الرسالات التي أوحى الله بها. ففي القرآن الكريم نصٌّ واضحٌ بذلك ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وشتان ما بين العلاقة القائمة على الإيمان، وتلك القائمة على التسامح؛ فالعلاقة الأولى نِدّية تقوم على الاعتراف بالحق واحترام الاختلاف، بينما الثانية فوقية، تقوم على إنكار الحق والاستعلاء على المختلَف معه.

إن من شأن التعصب للدين أو للمذهب أو للجماعة أن يقيم جزراً من التنوع متباعدة وجاهلة بالآخر، ومن تكون متشككة فيه ومستنفرة دائماً لمواجهته. وهذا تنوع خارج إطار الوحدة؛ بل رافض لها. أما التعارف فإنه

على العكس من ذلك يقيم وحدة في إطار التنوع، تعرف الآخر وتعترف به، وتبادله الاحترام والثقة والمحبة، وهذه وحدة في إطار التنوع.

سلبيتان لا تصنعان إيجابية: «وحدة تعسفية تطمس التنوع، وتعددية مطلقة ومتفلتة تأبى الوحدة».

إن التعارف ـ من حيث إنه يقوم على المعرفة ـ هو إحدى أسمى هبات الله للإنسان، والأساس الذي تقوم عليه أخوّةٌ إنسانية غنية بالاختلاف ومحترمه له، تجعل منه قاعدة للائتلاف والتوافق وليس للخلاف والتنابذ.

منهجية التعارف:

إنّ من شأن التعصب للدين أو للمذهب أو للجماعة أن يقيم جزراً من التنوع متباعدة وجاهلة بالآخر، تكون متشككة فيه ومستنفرة دائماً لمواجهته.

أرسى الإسلام ثلاث قواعد أساسية تقوم عليها الوحدة في التنوع؛ القاعدة الأولى هي الوحدة الإنسانية؛ بمعنى أن الناس جميعاً متساوون أمام الله الذي خلقهم من نفس واحدة. ولقد قال القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]؛ أي أن الناس متساوون في الخلق، وهم متساوون أيضاً في الكرامة، كما ذكرنا آنفاً. ولكن مع المساواة في الخلق، ومع المساواة في الكرامة، جعل الله ـ بإرادة منه ـ الناس شعوباً وقبائل، ولحكمة هو يعلمها جعل الناس مختلفين، ولو شاء لجعلهم أُمة واحدة.

القاعدة الثانية هي التنوع الانساني حيث تتابع الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: 13]؛ أي أن هذا التنوع ـ على ما فيه من اختلافات ـ جُعل بإرادة إلهية، وأن وجوده واستمراره هو تجسيد لهذه الإرادة الإلهية وتعبير عنها.

القاعدة الثالثة هي أن الهدف من هذا التنوع والاختلاف هو التعارف بين الناس تحقيقاً لوحدة تحترم التنوع وتحفظه وتحافظ عليه. حيث تكتمل الآية القرآنية بتحديد الحكمة من التنوع بقولها: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

فالتعارف هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة. ولكن لا تعارف من دون معرفة، ذلك أن التعارف يقوم أساساً على المعرفة، ويفترض بالآخر أن يكون مختلفاً حتى نتعرف عليه. ويفترض أن نكون نحن مختلفين عنه حتى يتعرف علينا. ومن دون هذا الاختلاف ما كانت هناك حاجة للمعرفة المتبادلة، وما كان للتعارف أساساً أن يكون. من هنا فإن الدعوة القرآنية للناس ليتعارفوا هي في حد ذاتها دعوة لهم للتعرف على ما بينهم من اختلافات وللاعتراف بهذه الاختلافات، ولادراك حتمية استمرارها، ولبناء مجتمع إنساني واحد ومتناغم على قاعدة معرفة المختلفين وتعارفهم.

الحاجة إلى التعارف الإنساني:

تبدو هذه المنهجية للتعارف بين الناس في القرن الواحد والعشرين حاجة إنسانية ماسة ربما أكثر من أي وقت مضى، وذلك في ضوء الأمور الآتية:

الأمر الأول هو تحوّل القضايا الوطنية (مثل حقوق الأقليات وحتى الأفراد وحرية العبادة وسواها) إلى قضايا عالمية إنسانية، وكذلك تحول القضايا العالمية (مثل السلام والتنمية وحركة رؤوس الأموال والاستثمارات والخدمات وتبادل السلع) إلى قضايا وطنية محلية.

الأمر الثاني هو أن القرار الوطني في دولة ما لم يعد ملكاً حصرياً لأصحابه فقط. ولكن عملية اتخاذه باتت جزءًا من عملية اوسع تتداخل فيها عناصر ما وراء الحدود الوطنية وتلعب دوراً أساسياً مؤثراً.

أما **الأمر الثالث** فهو انحسار مساحات التنوع الثقافي وتراجع فرص المحافظة على الهويات الوطنية التي توفر لهذا التنوع قوة استمراره. إن الشعور بالاختناق الذي بدأت تعاني منه ثقافات متعددة يعود إلى تمتع ثقافة واحدة بقدرات متطورة للهيمنة على ثقافات العالم وفرض قيمها الذاتية عليها واعتماد هذه القيم مقياساً للتخلّف أو للتحضّر.

يقول المستشـــرق الإنكليزي مونتغمري وات في كتابه «الفكر السياســـي الإسلامي»[1]:

إذا ألقينا نظرة عامة على العلاقة بين الدين والسياسة، فإن من المفيد الاهتمام أولاً بموقع الدين في حياة الفرد.

فبالنسبة للشخص الذي يشـــكّل الدين عنده معنى خاصاً، وليس مجرد تعلّق شكلي، يمكن التأكيد على نقطتين:

النقطة الأولى: أن الأفكار التي تتضمنها ديانته ترسم له الإطار الثقافي الذي يحيط بنشاطاته وبأعماله كلها، ومن خلال هذه العلاقة تكتســـب نشـــاطاته أهميتها، كما أن هذه العلاقة قد تؤثر بطرق معينة على البرنامج العام لحياته.

التعارف هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة، ولكن لا تعارف من دون معرفة، ذلك أن التعارف يقوم أساساً على المعرفة، ويفترض بالآخر أن يكون مختلفاً حتى نتعرف عليه.

النقطة الثانية: هي أن الدين ـ من حيث إنه يؤدي بالمؤمن إلى وعي المضمون الأوســـع الذي تقوم عليه الأهداف الممكنة لحياته ـ من الممكن أن يولد ـ الدين ـ لديه الحوافز المحركة لسائر النشاطات التي يقوم بها.

وبالفعل فإنه من دون هذه الحوافز الدينية، لا يمكن القيام ببعض هذه النشاطات.

ومن خلال هاتين النقطتين يتبيّن لنا كيف أن الدين يحتلّ موقعاً مركزياً في حياة الانسان، ليس من حيث إنه يقرر الكثير من التفاصيل (مع أنه يفعل ذلك بالفعـــل في بعض الحالات)، ولكن من حيث إنه يوفر للإنســـان أهدافاً عامة في الحياة، ويساعده على تركيز وعلى تجميع قواه من أجل تحقيقها[2].

1 ـ Montgomery Watt, Islamic Political Thought, Edinbugh Uni. Press. 1968, P. 28.

2 ـ If we look more generally at the relation between religion and politics, it is helpful to consider first the place of religion in the life of an individual. In the case of a person to whom religion means something and is not a merely nominal adherence, two points may be emphasized: =

وهذا يعني أنه لا قيمة لحياة الإنسان إذا لم تكن له خلفية ثقافية يستمد منها معنى لحياته، ومن ثم فإن تذويب أي ثقافة خاصة هو تذويب للقيم التي تقوم عليها إنسانيته، وتدمير لها. وعندما يتداخل الدين مع الثقافة؛ أي عندما يكون الدين مكوّناً بامتياز، أو المكوّن الأساس للثقافة، يأخذ الدفاع عن الخصوصية الثقافية بعداً مقدساً على النحو الذي نشهده اليوم في مواقع متعددة من العالم، بما في ذلك ـ بل وخاصة ـ في عالمنا.

ولكن عندما تكون الخلفية الثقافية مبنيّة على اللامعرفة، أو على سوء المعرفة من خلال صور نمطية سلبية عن الآخر، فإن هذه الثقافة تصبح أداة لتدمير العلاقات الإنسانية، والتاريخ حافل بالأمثلة على ذلك.

مخاطر اللامعرفة

في منتصف القرن التاسع نشر المؤرخ البيزنطي جورج هامر تولوس كتاباً عن تاريخ الإنسانية، في الفصل 235 من هذا الكتاب وصف المسلمين بأنهم «رجال أغبياء مشوشو العقول»[1]. ومن بعده وجّه الراهب الفرنسي هيو كلوني (1049 - 1119) رسالة إلى أحد الأمراء المسلمين دعاه فيها إلى الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية، مبرراً دعوته بقوله: «لقد خدع الشيطان أحفاد إسماعيل بالنسبة لإيمانهم بمن يعتقدون أنه نبي، فكان طبيعياً أن يكون عقابهم نار جهنم»[2].

= First, the ideas of his religion constitute the intellectual framework within which he sees all his activity taking place.

It is from this relationship to a wider context that his activities gain their significance, and a consideration of this relationship may influence his general plan for his life in particular ways. Secondly, because religion brings an awareness of this wider context in which the possible aims for a man's life are set, it may often generate the motives for his activity; indeed, without the motives given by religion some activities cannot be carried out. From these two points it is seen that religion has a central position in a man's life, not because it determines many of the details (though in some cases it may), but because it gives him general aims in life and helps to concentrate his energies in the pursuit of these aims.

1 ـ Gaudeul, Encounters and Clashes, Vol. II, P. 78.

2 ـ Ibid. Vol. II, P. 19.

وفي أواسط القرن التاسع عشر حرّمت الحكومة الإنكليزية على رعاياها شـرب القهوة. كانت حبات البن تُعرف يومذاك باسم «حبات محمد». وكان هناك اعتقاد بأن من يشـرب القهوة يرتد عن مسـيحيته إلى الإسلام، وأن الأتراك المسلمين يتآمرون على المسيحية في بريطانيا من خلال القهوة.

وقد تمكّن رئيس أساقفة كنتربري ـ الأسـقف لاند ـ من استصدار قانون عـن مجلس العموم في عـام 1637 يمنع أي بريطاني من شـرب القهوة ومن اعتناق الإسلام.

عندما تكون الخلفية الثقافية مبنيّة على اللامعرفة، أو على سوء المعرفة من خلال صور نمطية سلبية عن الآخر، فإن هذه الثقافة تصبح أداة لتدمير العلاقات الإنسانية، والتاريخ حافل بالأمثلة على ذلك.

قبل وفاة الرئيس الأميركي الأسـبق ريتشارد نيكسون صدر له كتاب عنوانه «اقتناص اللحظة». كشـف فيه بكثير من الوضوح عن ثقافة كراهية الإسلام. فقال في الصفحة (195)[1]:

«يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يكون قـوة جغرافية متعصبة ومتراصـة، وأن نمو عدد أتباعـه، ونموّ قوته المالية سـوف يفرضان تحدياً رئيسـاً، وأن الغرب سوف يضطر لتشكيل حلف جديد مع موسـكو من أجـل مواجهة عالم إسلامي معادٍ وعنيف. إن وجهة النظر هذه ـ يضيف نيكسون، تعتبر أن الإسلام والغرب على تضاد: وأن المسـلمين ينظرون إلـى العالم على أنه يتألف من معسكرين لا يمكن الجمع بينهما: دار الإسلام، ودار الحرب».

عكس نيكسون في كتابه صورة غير محببة عن العالم الإسلامي عندما قال (ص 194): «إن معظم الأميركيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسـلمين على أنهم غير متحضريـن، برابرة، غير عقلانيين، لا يسـترعون انتباهنا إلا لأن الحظ حالـف بعض قادتهم وأصبحـوا حكّاماً على مناطـق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط».

1 ـ Richard Nixon, Seize the Moment, Simon Schuster, N.Y. 1992, P. 194.

ولا شك في أن كثيرين في الولايات المتحدة وفي الغرب يشاركون نيكسون وجهة نظره التي يقــول فيهــا (ص 196): «إنه يوجد في العالم الإســلامي عاملان اثنان مشتركان فقط: هما الدين الإسلامي والاضطراب السياسي».

بعد انتهــاء الحرب الباردة وســقوط الاتحاد الســوفياتي وانحلال حلف وارســو، جرى تصعيد متعمد للعدوانية الغربية ضد الإســلام، حتى أن مدير معهد بروكنغز في واشــنطن Brookings Institution هيلموت سوننفيلد Helmut Sonnenfeldt قال: إن حلف شمال الأطلسي ســوف يعيش، وإن الغرب سيبقى مجموعة دول لها قيم أساسية مشتركة، وستبقى هذه المجموعة متماسكة معاً من خلال الشعور بخطر خارجي: الموقف من الفوضى أو التطرف الإسلامي.

وقبل ذلك في ربيع 1990 ألقى الدكتور هنري كيســنجر وزير الخارجية الأميركية الأسبق خطاباً أمام المؤتمر الســنوي لغرفة التجارة الدولية، قال فيه: «إن الجبهة الجديدة التي يتحتم على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب». وإن حلف الأطلسي باقٍ، رغم انخفاض حدة التوتر بين الشرق والغرب في أوروبا؛ ذلك أن «أكثر الأخطار المهدِّدة للغرب في السنوات القادمة آتية من خارج أوروبا. وفي نهاية التسعينات فإن أخطر التحديات للغرب ستأتي من ناحيتي الجنوب (أي المغرب العربي) والشرق الأوسط».

وكانت مجلة الإيكونوميست البريطانية المعروفة برصانتها قد نشرت في الوقت نفســه على الغلاف موضوعاً بعنوان: «الإسلام: الإيديولوجية البربرية المعادية للغرب». وجاء في دراسة أخرى نشرتها مجلة ألمانية متخصصة في الدراسات الاستراتيجية[1]:

في ذلك الوقــت دعا رئيس مجلــس النواب الأميركي نيــوت غينغريش، المجلس «إلى وضع استراتيجية متكاملة لمحاربة التوتاليتارية الإسلامية».

يلاحظ المفكر الأميركي الأصل صموئيل هنتنغتون في دراســة نشــرتها مجلة الشــؤون الخارجية (فورين أفيــرز) الأميركية، ونقلــت مقتطفات منها

1 - Blaetter Fuer Deutsche U. Internationale Politik 10/1990, P. 1158 - 1163.

صحيفة هيرالد تريبيون الأميركية[1] «أن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية تفصل الشعوب عن هوياتها المحلية، وفي معظم أنحاء العالم يتقدم الدين لملء هذا الفراغ على يد حركات غالباً ما تتصف بالأصولية كالمسيحية الغربية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية والإسلام».

وفي مقابلة أجرتها معه مجلة تايم الأميركية[2]، سألت المجلة البروفسور هنتنغتون: إنك تؤكد أن الصراع المقبل الذي سيواجهه الغرب سوف يأتي من العالم الإسلامي، لماذا؟

قبل حادث 11 أيلول ـ سبتمبر 2001 كان قساوسة الحركة الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة يعبّرون عن كراهيتهم للإسلام ويصبّون جام حقدهم عليه.

يجيب هانتنغتون على السؤال بقوله: «إن الإسلام هو الديانة الأشد صرامة في العالم خارج المسيحية، لا يوجد فصل بين الدين والسياسة. ثانيا: هناك شعور بأن العالم الإسلامي قد تعرض للهجوم واستُغل على يد الغرب، وأن ثمة نوعاً من الصحوة في طريقها إلى البروز. إن الصراع سيأخذ عدة أشكال. والواحد منا لا يريد أن يظن بأن هذا يعني قيام حرب ماحقة بين الإسلام والغرب».

قبل حادث 11 أيلول ـ سبتمبر 2001 كان قساوسة الحركة الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة يعبّرون عن كراهيتهم للإسلام ويصبّون جام حقدهم عليه، ومن أبرزهم جيري فولويل وبات روبرتسون وفرانكلين غراهام وهول ليندسي وكثير غيرهم. فهم يرون أن المسلمين ـ بوقوفهم في وجه الإسرائيليين ـ يعطلون المشيئة الإلهية ويؤخرون العودة الثانية للمسيح.

وقد حذر القس ليندسي من «أن المسلمين لا يريدون فقط تدمير دولة إسرائيل؛ ولكنهم يريدون تدمير الثقافة اليهودية ـ المسيحية التي تشكّل

1 ـ Herald Tribune, June 1993.

2 ـ The Times, June 1993.

أساس الحضارة الغربية. إنهم كالشيوعيين، في أعماق فلسفتهم، توقٌ شديد لدفننا جميعاً»[1].

ووصف القس جيري فاين Jerry Vine النبي محمداً ﷺ في مؤتمر المحفل المعمداني الجنوبي الذي عُقد في فلوريدا في عام 2002 بأنه الشيطان نفسه[2].

وكان فرانكلين غراهام Franklin Graham وهو نفسه أيضاً الذي ترأس الصلاة الخاصة بمناسبة أداء القسم الدستوري للرئيس السابق جورج بوش الابن، قد قال عن الإسلام: «إنه دين شيطاني وشرير»[3]، وقال عنه القس جيري فولويل: إنه دين «مزوّر».

إن هذه الصور النمطية السلبية المشوهة عن الإسلام متأصلة في جوانب عديدة من الثقافات الدينية الغربية على نطاق واسع، وهي تعكس بشكلٍ واضحٍ مدى خطورة سوء المعرفة، أو حتى اللامعرفة بالإسلام وقيمه ومبادئه. ومع استمرارها يتعذّر إقامة علاقات احترام صادقة بين العالمين الإسلامي والغربي، الأمر الذي يتطلّب فتح آفاق لحوار فعّال يصحّح هذه الصور، ويرسي قواعد فكرية جديدة تقوم عليها العلاقات بين الجانبين. ومن هنا تأتي أهمية الدعوة الإسلامية إلى التعارف.

لقد أدّت اللامعرفة، أو سوء المعرفة ـ ولم تزل تؤدي ـ إلى سوء التفاهم وتالياً إلى سوء العلاقات. ومن شأن التعارف أن يبدد الصور النمطية السلبية وأن يرسي أسساً صحيحة وسليمة للمعرفة وللتعارف.

فالتعارف هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة الديانات والعقائد والثقافات والأجناس. ولكن لا تعارف من دون معرفة؛ ذلك أن التعارف يقوم أساساً على المعرفة. ويفترض بالآخر أن يكون مختلفاً حتى نتعرف إليه، ويفترض أن نكون نحن مختلفين عنه حتى يتعرّف إلينا، ومن دون هذا الاختلاف ما كانت هناك حاجة للمعرفة، وما كان للتعارف أساساً أن يكون.

1 ـ H. Lindsay, The Final Battle, P. 45.

2 ـ Richard Vara, Texas Seccesion rumor, Attacks on Islam Mark Baptist Meeting, House Chronicle, 10 June 2002.

3 ـ Washington Post, Vol. 18, 2001.

من هنا فإن الدعوة القرآنية للناس ليتعارفوا هي في حدّ ذاتها دعوة لهم للتعرّف على ما بينهم من اختلافات وللاعتراف بهذه الاختلافات، ولإدراك حتمية استمرارها، ولبناء مجتمع إنساني واحد ومتناغم على قاعدة معرفة المختلفين وتعارفهم، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

يرسي الإسلام قواعد لعلاقة الإنسان بنفسه، ولعلاقته بأخيه الإنسان (سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن) ولعلاقته بمجتمعه، ولعلاقته بربه. هذه القواعد الكلية تشمل قضايا وأموراً حياتية تتغير بتغير الأزمان والمجتمعات؛ ولذلك فإن الحكمة الإلهية قضت بصياغة النصوص الدينية بحيث تترك المجال مفتوحاً أمام الفكر الإنساني لفهمها وهضمها ولاستنباط الأحكام منها وفقاً للمستجدات والمتغيرات التي تواكب حركة التطور الإنساني.

لقد أدّت اللامعرفة، أو سوء المعرفة ـ ولم تزل تؤدي ـ إلى سوء التفاهم وتالياً إلى سوء العلاقات. ومن شأن التعارف أن يبدد الصور النمطية السلبية وأن يرسي أسساً صحيحة وسليمة للمعرفة وللتعارف.

وفي الأساس أيضاً لا تكون الوحدة إلا مع الآخر، والآخر لا يكون إلا مختلفاً، وإلا فإنه لا يكون آخر. هذا يعني أن المحافظة على الوحدة تتطلب المحافظة على الآخر، وأن استمرارها هو استمرار له. وهو يعني بدوره ان الوحدة يجب ألا تؤدي بل يجب ألا تعني أساساً محاولة إلغاء الآخر أو تذويبه، وإلا تصبح وحدة مع الذات؛ فما من وحدة قامت واستمرت وازدهرت إلا وفيها تماه للآخر وتماه معه، وما من وحدة تهاوت وتفتّتت إلا نتيجة امتهان حق الآخر المكوّن لها في أن يكون نفسه؛ أي أن يكون آخر.

يتحدث فرويد عن نرجسية الاختلاف، ويقول: إنه مهما كان الاختلاف محدوداً فإنه يحتل موقع القلب في هوية كل منا.

خاتمة:

هناك مقاربتان للتعامل مع الحالة المرضية التي تعاني منها العلاقات بين الناس من أهل الأديان المختلفة أو الثقافات المتعددة، والتي تعرقل

وتعطّل الحوار الإنساني الذي يقود إلى المعرفة السليمة، ومن ثم إلى التعارف السليم.

المقاربة الأولى سلبية. وتتمثل هذه المقاربة في نظرية المستشرق اليهودي الأميركي المعروف برنار لويس (وهو أستاذ التاريخ في جامعة برنستون ومؤلّف 20 كتاباً معظمها عن الإسلام والشرق الأوسط). تدّعي هذه النظرية أن كراهية المسلمين للغرب تقوم على أساس أن العالم العربي الإسلامي هو عالم فاشل ومهزوم، وأن العالم الغربي ـ وعلى رأسه الولايات المتحدة ـ هو عالم ناجح ومنتصر، وأن على العالم الغربي بدل الانشغال بالبحث عن جواب على السؤال لماذا يكرهوننا، البحث عن جواب على السؤال الأهم وهو: لماذا لا يخافوننا ولا يحترموننا؟

وفي فلسفته لهذا الأمر رأى لويس أن غياب عامل الخوف من الغرب هو الذي أدّى إلى تحوّل الكراهية إلى الارهاب. ورأى من ثم أن القضاء على الإرهاب يتطلّب تخويف العالم العربي الإسلامي وإرهابه.

أما **المقاربة الثانية** فإيجابية، وهي تتمثل في الدعوة إلى الحوار بين الحضارات والأديان والثقافات بحثاً عن جوامع مشتركة تحقق التفاهم المشترك والاحترام المتبادل والتعايش بسلام بين كافة أمم وشعوب الأرض.

لقد جُربت المقاربة الأولى وأسفرت عن تعميق هوة جهل الآخر بدل ردمها أو بناء جسر حواري يجمع بين ضفتيها، الأمر الذي زاد في تشويه الصور المتبادلة، وغذّى من مشاعر العداء والكراهية. ولا تزال العلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي تعاني من هذه الآثار السلبية السيئة حتى اليوم.

وهذه المقاربة أشبه ما تكون بالكلمة الخبيثة التي يجب أن تجتث من فوق الأرض.

من هنا تأتي أهمية وضرورة التجاوب مع المقاربة الثانية والانفتاح عليها وإفساح المجال أمامها حتى تعطي أكلها على أساس أنها في ـ دعوتها للتعارف والاحترام على قاعدة قبول الاختلافات ـ تبدو مثل كلمة طيبة. والكلمة الطيبة كما وصفها القرآن الكريم أصلها ثابت وفرعها في السماء.